قاسم أمين ومكانة المرأة فى المجتمع المصرى الحديث

وسائل الاصلاح بترقيتها — وتطور الفكرة فى ذهن المصلح الاجتماعى

للأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى

مضى على وفاة المرحوم قاسم أمين ثلاث وثلاثون سنة أى جيل كامل فان علماء التاريخ يعتبرون القرن ثلاثة أجيال generation. وكان عمره عند وفاته فى أبريل سنة ١٩٠٨ خمسا وأربعين سنة وما تزال السيدة المصون حرمه على قيد الحياة فى الثالثة والسبعين وقد تفضلت وشرحت لبنات هـذا الجيل وأبنائه حقيقة أفكار زوجها وبأب مقاصده من دعوته إلى تحرير المرأة ، وقبل أن نتناول هذه الناحية من البحث نذكر لقراء العربية تاريخ تطور الفكرة الخاصة بالمرأة فى ذهن هذا المصلح الاجتماعى العظيم .

بعد أن عاد قاسم أمين من تعليمه فى أوروبا إلى مصر فى العقـد الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٩١) زار مصر رجل فرنسى اسمه دوق داركور و بعد أن عاد إلى فرنسا وضع كتابا بالفرنسية حمل فيه حملة شعواء على مصر والاسلام وانتقد الدين والأخلاق انتقاد مرا. وكان يقال فى ذلك العهد إنه كان يعزز مركز فرنسا فى شمال أفريقيا و يبرر استعمار الجزائر وتونس فضرب بسهمه أرقى البلاد العربية وهى مصر ليسهل عليه الاجهاز على من كان أقل منها من الأمم أو من يعترف لهـا بالزعامة الشرقية . فلم ينبر للرد على دوق داركور بلسانه ولغته فى كتاب مطبوع غير قاسم أمين على كثرة من كانوا يتقنون التحرير والتعبير بتلك اللغة ولكنهم آثروا جانب السلامة بعدم التعرض واختبأوا وراء مناصبهم أو دفعهم حرصهم عليها إلى التزام الصمت .

وقد أسهب المرحوم قاسم بك فى الدفاع عن المرأة المسلمة المصرية والتشريع القرآنى الخاص بها حتى ألزم الدوق الحجة فى كثير من المواطن ، وقيل فى بعض المحافل والصحف إن قاسما جار على الدوق . و يظهر أن انتقاده لكتاب داركور أثر فى نفس قاسم تأثيرا شديدا أدى به إلى تأليف كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" فقد روى المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا وكان من المتصلين به بحكم صلتهما بالمغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده قال : "أخبرنى قاسم أنه كان يوم أطلع على ما كتبه[1] الدوق داركور غافلا عن حال النساء بمصر

---

(١) أطر عدد صفر سنة ١٣٢٦ من مجلة المنار .

فآلمه ذلك النقد والتشنيع فاندفع إلى الرد بوجدان الغيرة وبعد أن شفى غيظه وأرضى غيرته بذلك عاد إلى نفسه وفكر فى الأمر فرأى أن كثيرا من العيوب التى عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح فى نفسه فبعثه ذلك إلى أن درس هذه المسألة قائلا فى نفسه "إنه لاينفعنا إذا كان العيب فينا أن نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وإنما يجب علينا أن نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى فى إزالته" وطفق يبحث ويسأل ويفكر فى حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الإفرنج فى شأن النساء وانتهى به البحث والتنقيب إلى تأليف كتاب تحرير المرأة الذى هز مصر هزه شديدة وشغل جرائدها فى تقريظه ونقده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعا إلى التصنيف فى الرد عليه وبذلك طار صيت قاسم أمين فى الآفاق وعرف اسمه فى الشرق والغرب وعد من المصلحين الاجتماعيين .

كان تحرير المرأة أول مؤلفاته باللغة العربية فلما تعرض عشرات الكتاب لنقده وزعم بعضهم أنه نتيجة امتزاج مجهوده بمجهود صديقيه الشيخ محمد عبده وسعد زغلول بك (وكان كلهم قضاة فى محكمة الاستئناف) عزز كتابه الأول بكتاب ثان " المرأة الجديدة " وهو يفوق الأول فى قوة الحجة ووضوح الدليل وقد أخلاه من الشواهد الدينية من القرآن الكريم والحديث الشريف لأن الذين كانوا يخالفونه فى الرأى لم يتعذر عليهم أن يأتوا بأدلة دينية تنقض أدلته وتنفى نتائجه كما حدث فعلا فى كتابى الأستاذين محمد فريد وجدى بك وطلعت حرب بك (يومئذ) .

وقد حدثت وفاة المرحوم قاسم أمين عقيب حفلة أقيمت فى نادى المدارس العليا فى أوائل أبريل سنة ١٩٠٨ تكريما لوفد من الطلاب والطالبات الرومانيات جاءوا وجئن من بخارست إلى مصر لزيارة الآثار فخطب بعضهن فى النادى بالفرنسية فعقب عليهن المرحوم متمنيا أن يعيش حتى يرى اليوم الذى تخطب فيه الفتاة المصرية خطبة بليغة بلغتها وبغيرها من اللغات . ثم عاد إلى داره فجلس فى بهو الدار ودخن لفيفة من الطباق (سيجار هافانا) وشرب قدحا من الماء ثم فاضت روحه .

لم يرق قاسم أمين إلى درجة المصلح الاجتماعى فى مصر عفوا ، ولم يذع صيته ويظهر فضله مصادفة وهو فى الخامسة والثلاثين بل كان منذ شبابه دائبا فى البحث والتنقيب عن وسائل الاصلاح الاجتماعى فى الشرق عامة ، ومصر خاصة فتثقف ثقافة أوروبية بعد ثقافته العربية ، ودليلنا على ذلك أسلوبه الكتابى وانخطابى فى كتابه الآنفين وفى أحكامه القضائية وخطبه الرنانة فى مجلس ادارة الجامعة المصرية عند إنشائها . وفى كتبه الأخرى (أسباب ونتائج) و (ومذكراتى) ففى الكتاب الأول رسم صورة دقيقة للمجتمع المصرى وفى الثانى أوضح كثيرا من العلل الاجتماعية وسجل اختلاجات نفسه وخواطره أثناء شبابه ورجولته . وكان أكبر همه حث الأمة والحكومة على رفع المستوى الخلق والعقلى فلما وقف حسن زايد باشا أطيانا كبيرة الريع على الجامعة المصرية عند إنشائها وذهب قاسم بك

مع بخنة لتسلم حجة الوقف خطب فقال : إذا نظرنا إلى طائفة المتعلمين فى مصر وهم متخرجو المدارس العليا نجد أنهم يعملون على مبدأ " كسب كثيرا وتعب قليلا " ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أوفنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل قلبه وتمتد فيه وتملؤه برمته ولا تقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبها . وقد وصف فى مذكراته أجناسا وألوانا من الناس الذين يتهربون من المسئولية حتى جعلوا الفرار من التبعات نوعا من العقيدة (culte d'irresponsabilité) هؤلاء الذين يبحثون ويدأبون للحصول على المغانم وينفصلون من الواجبات التى قد تجر وراءها بعض المغارم " .

ثم تطور فكر المصلح الاجتماعى وسار بخطى واسعة نحو غايته الأخيرة فكتب يقول " إن عدم استعداد طبقة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج المادية فى جميع أمورنا حتى فى الأشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقة الأقارب والاصدقاء وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا فى هذه الجهة تغيرا محسوسا إلا إذا تم إصلاح العائلة المصرية ! أرأيت أنه انتقل من بحث إلى بحث ومن مسألة إلى أخرى حتى بلغ فكرته الأصيلة وجعل انحطاط المرأة وجهلها سببا فى تأخر الأمة بأسرها . وآية ذلك أن المرحوم قاسم بحث فى المسائل الاجتماعية بصفة عامة فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية وسنن التحليل والتركيب والنمو التدريجى والانتقال بالتطور لا بالطفرة وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر بصفة خاصة فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة .

وبعد ثلاث وثلاثين سنة من خطبته التى ألقاها باللغة الفرنسية على منبر نادى المدارس العليا فى تلك الليلة التى لا تنسى من ربيع ١٩٠٨ تحقق أمل قاسم وبلغت الفتاة المصرية الدرجة التى كان يتمناها فتلقت العلم فى مدرجات الجامعة المصريه التى كان فى مقدمة منشئيها مع الشبان على مقاعد متحدة ومتجاورة ثم تخرجت بعد أن أتقنت اللغات وكتبت بها وخطبت وإن يكن قاسم أمين قد لفظ أنفاسه الأخيرة عقيب خطبته وكانت آخر ما نطق به فاستجيبت دعوته وتجسدت أمنيته ولا يضيره أنه ذهب من ناديه إلى داره فصعدت روحه إلى بارئها فى تلك الدار التى قال حافظ ابراهيم يصفها فى حفلة تأبينه :

واها على دار مررت بها ... قفرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية ... وذكرت فيها وقفة الطلل
سألتها عن قاسم فأبت ... رد الجواب فرحت فى خبل
متعثرا يتنابنى وهن ... مترنحا كالشارب الثمل [1]

---

(١) موقع هذه الدار الآن فى شارع الخديو اسماعيل على يمين السائر إلى ميدان اسماعيل وقد حلت محلها عمائر جديدة تحمل رقم ١٧٠ وكان اسم الشارع " قصر النيل " .

فاعتقد المرحوم أن الرجل لاينجح بغير معونة المرأة والمرأة لاتعينه إذا كانت كما مهملا أو مخلوقة محقرة وقد قال صاحب مجلة القرن التاسع عشر الانجليزية وهو من كبار المفكرين عندما قامت فيدا جولد ستاين إحدى زعيمات النساء " إن الذين وقفوا على أحوال البلاد المتأخرة عرفوا أن لتأخرها سببين لاثالث لهما: حالة المرأة وحالة الصناعة ولاتفلح بلاد والمرأة والصناعة محقرتان فيها مهما كان غناها الطبيعي متوافرا " . ونقول إن الله أتاح قاسم أمين لإصلاح حالة المرأة فى مصر فى مستهل القرن العشرين ولو كان قاسم مقلدا أو ناقلا عن غيره ما أفلح قط فى دعوته ودعايته، فلم يكن ممن يجعلون عقولهم مستودعا لآراء الغير فإذا حضرتهم المناقشة أودعتهم الكآبة فى موضوع اجتماعى أخذوا يسردون على السامع والقارئ من محفوظهم من من أسلافهم من المنشئين والمتكلمين دون أن يكون لعقولهم نصيب من الرأى والحكم بل كان رحمه الله مفكرا أصيلا مستقلا اجتماعيا ومصلحا إنسانيا عالميا وقد لا يستغنى عن أفكار غيره ولكنه لاينتحلها إلا إذا اعتقدها وآمن بها وصارت جزءا من تفكيره بما نهض فى نفسه من براهين اليقين والأدلة التى لاتنقض. وإنما جاءت شهرته باصلاح حال المرأة لأنه كتب فيه كتابين ولقى فى سبيله من الاضطهاد والألم مالم يلق إلا كبار المصلحين فى العالم . وقد اتخذ إصلاح المرأة بالتربية والتحرير والسفور وسيلة لاصلاح الرجل و إصلاح الأمة . كان يبغض أن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة بل كان يتطلع الى أن يرى بين أبناء وطنه وهم أخلاف "المرأة المنشودة " طائفة تطلب العلم حبا للعلم والحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول .

روت زوجة المرحوم فى هذه الأيام بعد وفاته بثلاث وثلاثين سنة أنه حرص على أن تتلقى بناته دروسهن فى المنزل على أيدى أساتذة ومربيات ولم يتلقين العلم فى المدارس قط وأن زوجها كان يقصد من الدعوة الى تحرير المرأة أن ينهض جيل جديد يقاوم متاعب الحياة بأخلاق وتقاليد مبنية على الكرامة والاعتداد بالنفس ولم يكن يقصد الى أن تنزع سيدات عصره حجابهن وقد حرصت على بقاء الحجاب بعد وفاته .

روت السيدة حرم قاسم أمين هذه الذكريات. التى تنطوى على تفسير لبعض مبادئه لمحرر إحدى المجلات . والواضح من أقوالها أن سيدات وفتيات هذا الجيل الحاضر قد فهمن التحرير على غير حقيقته وأنها تنعى عليهن الخلاعة والمخاصرة واستباحة بعض المحرمات فى الحفلات العامة وفى بيوتهن والمبالغة فى الزينة والتبرج .

نعم ان السيدة المصون حرم المرحوم قاسم أمين لم تشاركه فى النضال الحامى الذى لقى فيه من خصومه كثيرا من النقد القاذع والهجوم العنيف والأذى المعنوى ولكنها كانت مطلعة على دقائق فكرته وقد عاشرته عشرين عاما فلا يجوز أن يهمل رأيها أو يضرب المعاصرون والمعاصرات برأيها عرض الأفق . والحقيقة التى لا شك فيها أن قاسم أمين أراد

بتحرير المرأة، فك قيود الجهل عنها بالتعليم والتربية، وهذا مستفاد من كتبه ومن خطبه، لأنه لو قصد الى التحرير المادى لكان هذا اعترافا منه بأنها مقيدة وأسيرة وسجينة ولم يكن هذا من الحق فى شىء فان المرأة المسلمة ولا سيما فى مصر كانت طوال عهودها متمتعة بحرية واسعة النطاق فسيحة المدى (انظر كتاب ابن اياس وحسن المحاضرة وتاريخ الجبرتى وفى اللغة الانجليزية " المصريون المحدثون تأليف الأستاذ ادوارد ويليام لين عن حقوقهن فى مصر وزواجهن وحياة الحريم وحريتهن صفحات ١٦٣و٢٨١و٢٩و١٥٩و١٧٥و١٢٠و١٤٢ من الأصل الانجليزى طبع وارد لوك بلندن) فان مصر منذ دخلت فى دائرة الاسلام حلعت على الجنس اللطيف من أسباب التدليل والترفيه والاسعاد والتنعيم ما لم يكن من نصيب امرأة أخرى فى كثير من أنحاء العالم .

وفى عهدنا هذا صرحت بعض زعيمات النساء الفضليات باستحقاقهن تمثيل الأمة عن سبيل الانتخاب فى مجلس النواب ، لا مجلس الشيوخ ؛ لا لعلة إلا استحالة وجود من تعترف منهن بأنها جاوزت حد الأربعين ! ولا يتنافى ما ذكرته السيدة المصون أرمل المرحوم وأمينته التى قضى عشية صرح بها على منبر نادى المدارس العليا وهى أن يعيش حتى يرى فتيات مصر كفتيات رومانيا يسافرن ويتعلمن ويخطبن باللغات الأجنبية فان السياحة والاغتراب فى طلب العلم والخطابة والكتابة لغة التعليم لا تخدش الكرامة ولا تؤثر فى الطهارة ولا تجرح شخصية الفتاة المستمسكة بالفضيلة ولم يكن قاسم يريد غير هذا . فلو بعث الآن من مرقده لوقعت عينه على ما تقربه وهو تهذيب الفتاة وتثقيفها وأيضا على مظاهر الاستهتار التى أصيب بها بعض الآخر . فكان يقر الأولى ويفرح بها ويستكر الأخرى ويتنكرها . لأن قاسم أراد فى صميم فكره فتاة تصلح أما لهذيب أبناء المستقبل الذين ينهضون بالأمة ويحققون آمالها . ولم يرغب قط فى بنات خليعات أو متبرجات لا يصلحن إلا زينة لأبهاء القصور أو حفلات الرقاف أو ليالى الأفراح .

ولم يكن قاسم رحمة الله عليه يريد جيلا من النساء على شاكلة السيدة بانكهرست التى كانت فى سبيل دعوتها لانتخاب جنسها فى مجلس نواب انجلترا تجلد مشاهير الساسة بالسياط فى الأماكن العامة فان المرأة الظريفة المهذبة لا تنقلب جلادا ولا أداة للتنكيل والعذاب ، ولا كهذه التى رسخ فى عقلها أن المرأة التى تستطيع أن تدير مهام البيت لا يصعب عليها أن تدير مهام المملكة (أنظر مقالة ايفا جولستدين فى مجلة نساء استراليا ١٩٣٨) وكانت البلاد التى تعطى حق الانتخاب ثلاثا فى العقد الأول من هذا القرن فى أوروبا وأمريكا فصرن سبعا فى مقدمتها بريطانيا العظمى (عدا عن استراليا ونيوزيلاندا) . ومن العجب العاجب أن فرنسا التى اشتهرت بحرية نسائها وظهور نابغات منهن فى العلم والأدب والسياسة من قديم الزمان لعصرنا هذا ، مثيلات مدام دى ستايل ومدام رولان ومدام فايت (راشيلد)

وكونتس دى نواى ومدام جولييت آدم ومارسيل تينير وما كسميلين بيله وكونتس دى روشبرون ومدام سافيتى ومدام تالين وعشرات غيرهن ، لم تفكر واحدة منهن فى الدعوة للانتخاب لمجلس النواب الفرنسى ، دع عنك مجلس الشيوخ . لم ينهضن بذلك فى فرنسا ولا إيطاليا ولا أسبانيا فى عهد الديموقراطية السابق لهذه الحرب والتى قبلها ولم يقلدن البلاد الانجلوسكسونية ؟ الجواب أن المرأة الفرنسية مهما بلغ ذكاؤها وفصلها وميلها للمنفعة العامة فهى سيدة الدار و " ست البيت " من قبل ومن بعد ولا يهون عليها أن تفرط فى عرشها الخاص وعشها وعش زوجها وأولادها لقاء شهرة وقتية وضجة عامة خارج الدار .

والمرأة الثانية شبه متوحلة لا تبالى بالحياة الخاصة وقد تترك الدار تنعى من بناها وقد تبالغ فتعيد عهد الكفالة والأمومة وسيادة المرأة حيث تسود بعلها . وقد يفسد على النساء طمعهن فى السلطة السياسية شدة الغيرة الفاشية فى جنسهن لا على الرجال والأزواج والثياب والحلى والحلل بل على النفوذ فيصعب على الواحدة منهن أن تسلم قيادها لأختها أو جارتها ويستحيل أن يكون النساء كلهن ناخبات ونائبات ويصعب عليهن أن يتنازلن بعضهن للبعض الآخر عن هذا الحق . أما فى فرنسا فان النساء يرين فى خدمة البلاد مشقة كبيرة فيحجمن عنها لما ذكرنا آنفا وتخلصا من المشقة وتفضيلا للراحة على التعب . ولذا نرى المرأة المصرية فى الوقت الحاضر وإلى خمسين سنة تأتى لا تفكر فى هذا المشروع ولا تعمل له ولا تناضل بسبيله ، لأنها وإن لم تشترك فعلا فى سياسة الأوطان فانها تعين على خيرها بخدمة الزوج وتنشئة النسل خير تنشئة .

كان قاسم أمين يريد أن يراها خطيبة ولم يفكر أن يراها نائبة وشيخة أو وزيرة مفوضة أو قائمة بأعمال (chargée d'affaires) غير أعمال بيتها . يصح فى الأفهام أن تصير المرأة ظل زوجها السياسى أو المصلح ولكن لا يجوز أن يصبح الزوج ظل زوجته حتى ولو كان من أضعف الرجال وكانت هى من ذوات العبقرية . لأن الزواج فى مثل هذه الحالة لا يستقيم ولا يدوم وليست كل نساء الشرق كشجرة الدر ولا كل نساء أوربا كاليزابيث أو كاترين الثانية .

ولكن فى العالم نابغات كمدام كورى وفلورنس نايتنجيل ومارى باسكير تشيف ومسز ما تشيل ومدام كاياقيه وغيرهن ممن أظهرهن الله بالعلم والفضيلة فأضفن إلى التقدم الإنسانى ثروة جديدة وعرفن كيف ينفعن الناس بغير تفاخر ولا مباهاة وجمعن بين إسعاد الرجال والقيام بأجل خدمة للمجتمع ، متناسيات فى معظم الأوقات شخصياتهن فكان ذلك أدعى إلى تقديرهن .

لقد كان هذا هو المثل الأعلى لقاسم أمين ، الذى يثب إلى ذهن القارئ إذا لم يكتف بتصفح كتبه ، بل عمل على درسها وتأملها . لأنه كان يحب العمل الصامت ، لا التظاهر

الصاخب ولذا كانت حياته على هذا النمط . كان رحمه الله من العظماء الذين لم يمهل لهم الأجل حتى تظهر كل مواهبهم .

لله درك كنت من رجل ... لـو أمهلتك غوائل الأجل
فاذا الكنانة أطلعت رجلا ... طاح القضاء بذلك الرجل !
يـا ذولة الأخلاق رافـلة ... من قاسم فى أبهـج الحلل
كيف انطويت به على عجل ... أكذا تكون مصارع الدول ؟

كما قال فيه حافظ بحق . فلو أنه عاش وعمر لأفاد وطنه فوائد جمة . ومهما تكن الحال فقيمة الرجل الحقيقية لا تعرف إلا بعد مرور الزمن وتمحيص الأقوال والأفعال بنار الفحص والتدقيق فى البلاد اليقظة المقدرة لموازين الرجال فكيف برجل مثله فى بلادنا ؟ ولكنه دل على نبوغه وحاجة وطنه اليه فى فترة قصيرة من الزمن وأثمرت جهوده فى جيل واحد . وإن تكن بضع نساء قد أسأن فهم مقاصده أو تعمدن اتخاذها تكأة لمآربهن فإن الزمن كفيل باظهار فضله وتنقية آرائه من الزيف وابقاء خيره وتخليد ذكره .

محمد لطفى جمعه